الفصل الواحد والعشرون

لمّ الشمل

ما زال العام ٢٠٠٨م، وبعد كل الخسائر التي تكبدتها في بضعة أشهر قصيرة، كنت مصممة أكثر من أي وقت مضى على أن أرى أطفالي ثانية، فقد أردت أن أقوي العلاقات الهشة بيننا قبل أن يفوت الوقت دون أن أحظى بفرصة معرفتهم، لكن قبل أن تتاح لي فرصة التخطيط للسفر إلى فلسطين اتصل بي أنس من الأردن، وقال: إنه يريد أن يأتي إلى سان أنطونيو ليزورني بضعة أشهر، وكان قد طلب من والده (حمزة) المال ليدفع ثمن التذكرة، لكن بالطبع كان رد حمزة أنه إذا أردت رؤية أمك فيمكنها أن تدفع بنفسها تكاليف السفر. كنت مبتهجة جدًّا بفكرة رؤية ابني أول مرة منذ سنين، لقد رغبت بشدة في أن أرى جميع أطفالي، لكن إن كنت لا أستطيع إلا رؤيتهم واحدًا تلو الآخر، فليكن ذلك.

وصل أنس إلى سان أنطونيو في أواخر شهر آب، وبقي عندي شهرين تقريبًا. كنت قلقة من أن يتصرف بتحفظ نحوي؛ لأنه لم يَرَني منذ مدة طويلة، لكنه تصرف كأننا لم نفترق أبدًا، فقد كان مبتهجًا ومليئًا بالحياة، أخذته إلى مطعم ليأكل وجبة التيكس-ميكس، وانضم إلى دورة لغة إسبانية سريعة في جامعة سان أنطونيو، وعندما أمضى بعض الوقت معي صارحته بأمر تحسين.

«ماما، لماذا يفعل بك هؤلاء الرجال تلك الأشياء؟ لماذا لا تجدين رجلًا لطيفًا؟».

«لا أعرف يا أنس».

استمتعنا بوقتنا مع بعض، فقط نحن الاثنان، وفي شهر تشرين الأول قررت أن أذهب في رحلة طالما خططت لها إلى الشرق الأوسط. فسيمكنني أن أرى يوسف وأبي وأخواتي في الأردن، ثم سأذهب إلى فلسطين لأرى روان وسارة وعبدالرحمن. فسافرت أنا وأنس إلى شيكاغو أولًا، ثم إلى عمّان، كان جواز سفري الأردني قد انتهت صلاحيته، لكن كان معي أيضًا جواز سفري الأمريكي، لذلك سمح لي عملاء الجمارك الأردنية بالدخول، وختموا تأشيرة دخولي على جواز سفري الأردني.

استقللنا سيارة أجرة إلى الشقة التي كان يوسف وأنس يتشاركانها عندما كانا في الجامعة في منطقة إربد، كان أبوهما يدفع فواتيرهما، ولن يكون سعيدًا بوجودي هناك، لكن لم يكن هناك داعٍ أن يعرف أنني أقيم هناك بضع ليالٍ، عندما دخلت للشقة قبّل يوسف يدي، وعانقني قائلًا:

«يسرّني رؤيتك يا أمي!».

أعد طعام العشاء لثلاثتنا، وفي اليوم المقبل ذهبت لأرى أبي وأخواتي في منطقة عمان- العاصمة، ثم اتصلت بسارة، وأخبرتها بأنني قادمة لرؤيتهم، وكان يوسف سيسافر معي.

غادرت أنا ويوسف في الصباح الباكر عند الساعة ٥:٣٠ تقريبًا، واستقللنا حافلة إلى الحدود الأردنية، وهناك عبس موظف وراء النافذة عندما نظر إلى جوازي سفري، وقال لي:

«لقد انتهت صلاحية جواز سفرك الأردني يا سيدتي».

«لكن جواز سفري الأمريكي مازال ساري المفعول».

«لكن تأشيرتك مختومة على جواز سفرك الأردني أنا آسف، لكن لا يمكننا أن نسمح لك بعبور هذه الحدود».

تحدثت مع المدير، وأخبرني بأن بإمكاني تجديد جواز سفري بسرعة، ومن المحتمل أن يجهز خلال يوم تقريبًا، فعدت أنا ويوسف إلى عمان، خشيت أن أتصل بسارة، وأخبرها بأنني لست قادمة، فكم مرة خذلت أطفالي، عندما لم أستطع أن أحضر لرؤيتهم! ثم تجرأت، واتصلت بها، وعندما سمعت سارة أنني لن أحضر مرة أخرى، بدأت بالبكاء.

«أعتقد أنك تكذبين عليّ! أنت لست في عمان! ولا حتى في الأردن! في كل مرة تقولين: إنك قادمة، لا تأتين!».

حاولت أن أشرح لها أن عليّ أن أجدد جواز سفري؛ لأن تأشيرتي في الدخول مختومة على جواز سفري المنتهي، وليس على الجواز الأمريكي الساري المفعول، على الرغم من أن جواز السفر الساري المفعول هو كل ما أحتاج إليه لأعبر الحدود الإسرائيلية، لكن لم تستطع سارة ذات الخمسة عشر عامًا أن تستوعب هذا.

«أنت تكذبين! أنا لا أصدق أي شيء تقولينه لي!».

obeikandl.com

أغلق مكتب الجوازات عند الساعة ٣:٠٠ مساءً، لذلك كان علي الانتظار حتى اليوم المقبل؛ لأجدده، ثم ذهبت إلى منزل أبي، ووجدته جالسًا في الفناء الخلفي يشرب الشاي.

«ماذا حدث؟ لماذا أنتِ هنا».

شرحت له مشكلة جواز سفري، وفي المساء حضرت أخواتي لتناول طعام العشاء، وعرضت علي نعمة أن تأخذ إجازة من العمل في اليوم المقبل لتساعدني بالذهاب معي، فوافقت، حاولت أن أتصل بسارة مرة أخرى، لكنها لم تجب، فاتصلت بغادة (زوجة أبيهم) وطلبت أن أتحدث مع أطفالي، لكنها عندما حاولت فتح أبواب غرف نومهم اكتشفت أن ثلاثتها مغلقة، وفي النهاية تحدث عبدالرحمن معي، وهو يبكي.

«أنت لن تأتي!».

«أقسم إنني سآتي لرؤيتكم!».

أخذت أختي نعمة سماعة الهاتف، وتحدثت معه.

«أمك معي هنا الآن، وحالما تحصل على جواز سفرها الجديد ستأتي لرؤيتكم».

تحدثت روان على الهاتف، واتهمت خالتها نعمة بالكذب.

«كل عام تخبرنا أمي بأنها قادمة لزيارتنا، لكنها لم تفعل ذلك أبدًا».

لم تفتح سارة باب غرفتها أبدًا.

كان عليّ أن أثبت أنهم مخطئون، فقد أردتهم أن يعرفوا كم أحبهم والجهد الذي بذلته لأفعل ما في مصلحتهم، حتى لو لم يستطيعوا إدراك ذلك الآن. وفي اليوم المقبل ذهبت أنا ونعمة إلى دائرة الجوازات معنا شهادات الولادة وأوراق الطلاق والصور وجوازا سفري الأمريكي والأردني، نظرت امرأة في مكتب الاستقبال إلى أوراقي، وسكتت قليلًا.

«أنا آسفة، لكن لا نستطيع أن نجدد جواز سفرك دون إذن زوجك».

«نحن مطلقان، وأوراق الطلاق معي هنا».

«إنها ليست أوراق الطلاق النهائية، فزوجك لم يتقدم بتسجيل الطلقة الثالثة، وبحسب الشريعة الإسلامية لا يعدّ الطلاق نهائيًّا إلا بعد الطلقة الثالثة».

obeikandl.com

تدخلت نعمة، قائلة: «ألا يمكنك قبول أوراق الطلاق هذه فحسب؟».

«لا، أنا آسفة، لا يمكننا فعل ذلك».

وهكذا كان علي أن أذهب إلى المحكمة، وأتقدم بطلب طلاق آخر، وهناك وجدت رجلين لم ألتقِهما من قبل يقفان خارج مبنى المحكمة، وطلبت منهما أن يكونها شاهدين على طلاقي، عرضت أن أدفع لهما؛ لأنني كنت على نار بأن أسرع في جعل هذا الطلاق طلاقا رسميًّا، لكنهما وافقا على فعل ذلك خدمة لي. وبعد الظهر تمكنت من رؤية القاضي، اضطررت إلى أن أستخدم جواز سفري الأمريكي لأثبت له أنني كنت خارج البلد، حتى يتأكد أنني لم ألتقِ زوجي ثانية، وأصبح حاملة منه خلال مدة انفصالنا، فوقع القاضي الأوراق، وأكد لي أن الطلاق أصبح نهائيًّا الآن.

توجهت أنا ونعمة إلى دائرة الجوازات وفي هذه المرة لم أستطع تجديد جواز سفري؛ لأن علي أن أحصل على دفتر عائلتي منفصلًا عن زوجي أو بالمعنى الأصح طليقي، لقد غابت هذه الوثيقة عن بالي؛ لأنها لا تستخدم في الولايات المتحدة، والآن بعد أن أصبحت مطلقة رسميًّا لا يمكنني استخدام دفتر عائلتي القديم الذي يشتمل على اسم حمزة وأطفالي، رافقتني نعمة لنحصل على دفتر عائلة جديد يشتمل فقط على اسمي واسم أبي، صدمت نعمة عندما شاهدت بنفسها كل هذا التجوال من مكان لآخر، وأحضرت لي ساندويتشًا وماء، حسنت دهشتها شعوري قليلًا، فأخيرًا صدق أحد من أفراد عائلتي بعض الأشياء التي أخبرتهم عنها، عندما عملت المستحيل لأحصل على وصاية أولادي.

وعندما حصلت أخيرًا على دفتر عائلتي وقرار طلاقي النهائي كان الوقت متأخرًا جدًّا لأعود إلى دائرة الجوازات، كان علي أن أتصل بأطفالي، وأخبرهم مرة أخرى بأنني مضطرة إلى تأجيل رحلتي إلى يوم آخر، وفي صباح اليوم المقبل ذهبت نعمة معي إلى دائرة الجوازات، وكدت أبكي عندما أعطوني أخيرًا جواز سفري الأردني.

حزمت حقيبة صغيرة، وجهزت نفسي لأذهب في الرحلة الطويلة إلى فلسطين، كان لدى يوسف اختبار ليجتازه في ذلك الوقت، ولم يستطع الذهاب معي، لكنه اتصل بوالده (حمزة) ليخبره بأنني قادمة.

«ماذا؟! ماذا تعني بأن أمك قادمة إلى هنا؟ أين ستقيم؟ وإلى متى؟».

أعارني أنس أحد هواتفه الجوالة، فاتصلت بأطفالي، وأخبرتهم بأنني في طريقي، كانوا يبدون متفائلين، لكن بحذر غادرت المنزل عند الساعة ٥:٣٠ صباحًا، وعدما مررت بالجمارك عند الحدود الإسرائيلية فتش أحد عملاء الجمارك حقيبتي، واستجوبني حول الألعاب والكاميرا التي بحوزتي.

«إنها لأطفالي».

«أين تقمين؟».

«في الولايات المتحدة».

«أين يعيش زوجك؟».

«في فلسطين».

«أين ستقيمين؟».

«مع أطفالي».

«هل لديك بطاقة ائتمانية؟».

أريتهم إحداها، وبدا أنهم مقتنعون بأنني لن أذهب إلى فلسطين لدوافع غير شرعية، فختموا التأشيرة على جواز سفري الأمريكي؛ لأنه لا يمكنني الدخول إلى إسرائيل بجواز سفري الأردني، استقللت حافلة إلى رام الله، المدينة التي يعيش فيها أطفالي، ثم اتصلت ثانية لأعلمهم بأنني اقتربت، وأنني سأصل إلى هناك عند الساعة ٥:٠٠ مساء تقريبًا.

«إن لم أستطع الاتصال بكم فهاتفي سيكون خارج نطاق الخدمة».

كان منزل حمزة يقع على قطعة أرض كبيرة، يطوقه جدار عالٍ، وكان قد وضع أسلاكًا شائكة أعلى الجدار؛ ليمنع أطفال الجيران من التسلل للداخل أو على الأقل سيندمون إذا حاولوا تسلق ذلك الجدار، سمع أطفالي وبعض الجيران أنني قادمة، فوجدت جمهورًا يتفرج علي من نوافذ عدة، وأنا أخرج من الحافلة. كان هناك مجموعة من الأطفال، أولاد عم أطفالي، تتراوح أعمارهم من الخامسة إلى السابعة، لم أرَ أيًّا منهم من قبل، لكن بدا أنهم يعرفون من أكون، فتحوا البوابة لي، فركض عبدالرحمن للخارج ليرحب بي، نظر إلي بفضول، ولمس وجهي.

obeikandl.com

قال لي، وهو خجل قليلًا: «الآن أعرف شكل أمي».

كان عمر عبدالرحمن سنتين فقط عندما شاهدته هو وإخوته يغادرون مع حمزة وغادة، والآن عمره ثماني سنوات.

أما روان، التي كان عمرها خمس سنوات عندما أخذها حمزة مني، فعمرها الآن إحدى عشرة، التي أسرعت إلى الخارج لتلف ذراعيها حول رقبتي، وهي تبكي. كان كثير من أولاد عم أطفالي يراقبون، ويبكون أيضًا، ثم خرجت إحدى بنات عمهم لتعانقني، وتخبرني بأنها مسرورة بحضوري.

انتظرت سارة أمام المنزل، وبدأت تشهق، عندما مشيت نحوها.

«هل تصدقين الآن أنني هنا؟».

أومأت برأسها، ووضعت وجهها على صدري، ثم صعدنا أربعتنا فرشة إلى الشرفة، وجلسنا مع بعضنا نتحدث، ونضحك كان أطفالي أطول مني قامة، وكانوا أذكياء، ولديهم هوايات واهتمامات لم أتخيلها أبدًا.

وبعد ثلاث ساعات أتت غادة لتسلم علينا، وعرفتني إلى أمينة، آخر زوجات حمزة، التي تزوجها عام ٢٠٠٧م، عندما تزوج حمزة أمينة غضبت غادة جدًّا، وكان عليها أن تذهب إلى منزل والديها لتهدئ أعصابها، وفي النهاية استسلمت، ورجعت إلى حمزة.

أخذتني غادة للداخل لتريني الغرفة التي سأنام فيها، كان هذا المنزل الكبير مقسمًا إلى شقق منفصلة، فقد احتوى على شقتين في الطابق الأول، واحدة لوالدة حمزة وأخته الصغيرة، أمل، والأخرى لأمينة، التي عاشت وحدها، باستثناء عندما يكون حمزة معها، كانت غادة والأطفال يعيشون في الطابق العلوي، وبعد أن تعرفت إلى المرأتين شعرت بالامتنان الشديد؛ لأن غادة هي زوجة حمزة الثانية. فبحكم مركزها، كانت مسؤولة عن تربية أطفالي، وكانت أكثر رأفة من أمينة. وكان أطفالي مرتاحين، ويتحدثون بسهولة مع غادة، لكنهم كانوا متوترين وغير سعداء بالوجود حول أمينة، التي تتصرف بلؤم أحيانًا. دعتني غادة للبقاء في شقتها مع الأطفال إن لم أقدر على تربيتهم بنفسي، إلا أنني أعرف على الأقل أن لديهم شخصًا يعاملهم بلطف.

obeikandl.com

استيقظنا جميعًا عند الساعة ٥:٠٠ في صباح اليوم المقبل، وصلينا، ثم عدنا للنوم. وعندما استيقظت للمرة الثانية عند الساعة ٧:٠٠ صباحًا، وجدت الجميع جالسين على طاولة الإفطار. وبينما كان الطعام يوزع علينا، بدأت أعد خططي ليومنا، كنت سآخذ الأطفال ليروا أعمام وخالات حمزة، لم أهتم بما قاله أبوهم، فنحن لسنا متزوجين بعد الآن، ولا يمكنه أن يملي عليّ أين أذهب، أو لا أذهب.

بدأت غادة بالضحك، وبدأ الأطفال يضحكون ضحكة مكبوتة. ثم توقفت في منتصف حديثي، ونظرت إلى غادة.

«ما الأمر؟».

«لا شيء. فقط أكملي طعامك، وسوف نخبرك».

«لا، أخبروني الآن، لن آكل لقمة أخرى إلى أن تخبروني لماذا تضحكون جميعًا».

كان حمزة على ما يبدو مرعوبًا جدًّا من فكرة أن أخطف أطفالنا، وأهرب معهم، وألا أسمح له برؤيتهم مرة أخرى، فقد رجع إلى المنزل، بينما كنا جميعًا نائمين، وأغلق جميع الأبواب والنوافذ من الداخل؛ حتى لا نتمكن من المغادرة.

«لا بد أنك تمزحين!».

«لا».

«لكني لست زوجته، ولا يمكنه جعلي أبقى هنا».

«أنت تعرفينه، لقد عشت معه مدة أطول مني».

«لا، لن أبقى هنا».

كان حمزة في الخارج يتفقد أشجار الزيتون في ممتلكاته. وأخذ أمينة معه، مساعدته المخلصة، طلبت من غادة أن تتصل بحمزة على هاتفه الجوال، وحالما أجاب أخذت الهاتف منها، حاولت أن أكون لطيفة معه.

«مرحبًا حمزة كيف حالك؟».

«ماذا تريدين؟».

obeikandl.com

«لقد أتيت لرؤية أطفالي».

«يمكنك رؤيتهم في المنزل».

«لا، سوف آخذهم لرؤية عماتهم».

«لا، لن تغادري معهم».

«أنا لست زوجتك بعد الآن، ولا يمكنك أن تملي عليّ ما أفعله».

أنهى المكالمة.

أخبرت الأطفال أن يجهزوا أنفسهم، كانوا يبدون متوترين.

«لا يمكننا الذهاب يا أمي، سوف يغضب أبي».

«جهزوا أنفسكم الآن! أقسم إنكم ستذهبون معي إلى بيوت عماتكم، وإلا فسأعود إلى الأردن، ثم إلى الولايات المتحدة، ولن أرجع أبدًا».

نظروا إلى بعضهم، ثم ذهبوا ليجهزوا أنفسهم، كان لدى غادة مفتاح احتياطي سري احتفظت به لمثل هذه المناسبة.

«أبقيه مخفيًّا لا تخبري حمزة».

غادرت أنا وسارة وروان وعبدالرحمن المنزل، ونجحنا في الوصول إلى البوابة دون أي أثر لحمزة. ثم التفتنا لنمشي في الشارع، ونجحنا في الابتعاد نحو صف من البيوت عندما جاء حمزة وأمينة فجأة بسيارة الجيب التي يملكها حمزة دعس على الفرامل بعنف، وقفز خارج السيارة، تقريبًا قبل أن يتسنى له إطفاء المحرك.

صرخ أطفالي: «بابا! بابا! بابا!».

فصرخ عليهم ليذهبوا إلى سيارة الجيب.

«إنهم أطفالي أنا أيضًا يا حمزة».

«لا، إنهم ليسوا أطفالك! لقد تركتهم عندما كانوا صغارًا!».

«لا، أنت تعرف أن هذا ليس صحيحًا».

obeikandl.com

وضع يده على عنقي، ودفعني، فصرخت سارة، قائلة:

«بابا أرجوك! لا تؤذي أمي!».

دفعت حمزة بدوري، فبدا مذهولًا، ثم لف إحدى ذراعيه حول روان والأخرى حول عبدالرحمن، وأخذهم إلى سيارة الجيب نظر للخلف إلى سارة، وقرر أنها كبيرة عليه ليحملها، فاستسلم، وقاد السيارة مبتعدًا ومعه الطفلان الصغيران، مشيت أنا وسارة إلى منزل أم أشرف، ففتح زوجها الباب.

«نعم؟».

«أتعرف من أنا يا عمي؟».

«لا».

«أنا أم يوسف».

«أم يوسف! أنا لم أرَك منذ زمن بعيد! ومن تكون هذه؟».

«إنها ابنتي سارة».

لم يكن حمزة يأخذ الأطفال ليزوروا أقاربهم، لذلك لم تَرَ أم أشرف وزوجها سارةَ منذ أن أخذتها لرؤيتهما عندما كان عمرها تسع سنين. كنا في شهر تشرين الأول، لذلك كانت أم أشرف في الخارج تقطف الزيتون، اتصل بها زوجها على هاتفها الجوال، فأتت مسرعة إلى المنزل، ثم ذهبت ابنتهما إلى المطبخ لتعد الغداء، وذهبت سارة لتساعدها، وعندما غادرا الغرفة أخبرت عمتي وعمي بأنني سأذهب إلى السفارة الأمريكية لآخذ أطفالي من حمزة. حاولا أن يقنعاني بالمنطق، قائلين:

«فقط دعي الأطفال ينهون دراستهم، نحن نعرف أنه مخطئ أنت أمهم ومن حقك أن تريهم، لكن عليك أن تفكري في مصلحتهم، كنا سنذهب للتحدث معه، لكنه لا يستمع لأحد».

جلسنا بصمت نأكل الأرز والدجاج والسلطة في غرفة المعيشة.

وبعد أن تناولنا الشاي ذهبت أنا وأم أشرف وسارة على بعد صفين من البيوت إلى منزل أم إبراهيم، عمة حمزة.

obeikandl.com

«حزّري من أتى لزيارتك؟».

بدأت أم إبراهيم بالبكاء، وعانقتني، ثم دخلنا المنزل، وجلسنا في غرفة المعيشة، بينما أنهت أم إبراهيم صلاتها، ثم رجعت، وابتسمت لرؤيتي أنا وسارة، وجلست على أريكتها.

«آمل أن هذه أخبار جيدة، قولي لي: إنك عدت لتعيشي مع حمزة».

«لا، أنا آسفة يا عمتي، لقد جئت لرؤية أطفالي فحسب».

بكت مجددًا كانت أم إبراهيم حساسة جدًّا ولطيفة، وكانت دموعها تنهمر بسهولة، وعندما عرفت ماذا يفعل بي حمزة الآن أصبحت غاضبة.

«أنا لا أعرف لماذا يفعل ذلك، فهو لديه زوجتان أخريان ليس لديهما أطفال، عليه أن يحمد الله من أجلك، فقد أنجبت له أطفالًا وسيمين!».

أخبرت أم أشرف أم إبراهيم بأنني أفكر في الذهاب إلى السفارة.

«فدوى، أعرف أنك مشتاقة إلى أطفالك، لكن إن كنت تريدين مصلحتهم فدعيهم يكملون دراستهم؛ فهم يعرفون البرنامج الدراسي هنا».

وافقت أخيرًا احترامًا لخالات حمزة، وبعد برهة ودعنا بعضنا، وأخذت سارة لتزور عمّ حمزة.

«السلام عليكم يا عمي! أنا أم يوسف!».

«أم يوسف من؟».

«زوجة حمزة».

كان عمّ حمزة كبيرًا في السن، وكان من الصعب عليه رؤيتنا بوضوح، لكنه فرح بمجيئنا، ثم قدم لنا هو وزوجته القهوة والحلويات، واستمع إلى آخر قصص جنون حمزة.

«أنا لا أعرف أي نوع من الرجال يفعل ذلك، وإذا تحدثت معه فلن يحترمني، لكن يمكنني الذهاب من أجلك».

«لا يا عمي، لا بأس».

obeikandl.com

لم أرد أن يُجرح شعوره، وأن ينزعج بسببي.

عندما عدت أنا وسارة إلى المنزل وجدنا البوابة والباب الأمامي مفتوحين كانت غادة وروان وعبدالرحمن في الداخل، فركضت روان وعبود نحوي ليعانقاني.

«ماما! لقد عدتِ!».

«أنا آسف لما حصل اليوم، لقد أردت أن آخذكم جميعًا لنتمشى، وأجعلكم تفعلون شيئًا جديدًا».

جلسنا على الأرض في غرفة المعيشة، ونحن كنا نبدو بائسين قليلًا، كانت غادة خائفة من أن يثور حمزة غضبًا، لكني لم أستطع السماح له بتدمير الدقائق المعدودة التي أمضيها مع أطفالي.

«سارة، أحضري بعض الأقراص المدمجة أو أشرطة الكاسيت، أي شيء لديك».

ذهبت إلى غرفتها، وأخرجت بعض الأقراص المدمجة من تحت كومة ملابسها، حيث كانت تخبئها؛ حتى لا يأخذها حمزة منها، لم يكن يسمح لهم بمشاهدة التلفاز أو استخدام الإنترنت، ولم يستطيعوا مشاهدة أقراص (الدفيدي) إلا وحمزة بقربهم، أحضرت سارة الستيريو، وشغلت الأقراص المدمجة التي حصلت عليها هدية من غادة، أو من بعض صديقاتها في المدرسة اللواتي يتعاطفن معها، ثم بدأنا جميعًا نرقص رقصًا شرقيًّا، ونغني مبتهجين، ولكن عبود وقف متوترًا على جنب.

«ماما؟ ماما، أغلقي النافذة إن أبي في الطابق السفلي، وسوف يسمعنا».

«لا، دعه يسمعنا سوف نستمتع بوقتنا».

ذهبت نحو الستيريو، ورفعت الصوت، فسمعنا حمزة من على بعد طابقين، وصعد الدرج غاضبًا فاتحًا الباب بعنف، جلس الجميع باستثنائي.

«هذا ليس منزلك! اخرجي منه!».

«هذا منزل أطفالي، ولقد جئت من أجلهم، وليس من أجلك».

أمسك حمزة مقبض حقيبتي.

obeikandl.com

«ضع الحقيبة أرضًا يا حمزة!».

كان معي كاميرا فيديو وبعض الألعاب لأطفالي في تلك الحقيبة، لكن حمزة تجاهلني، وتكسرت أسفل الدرج، وهي ترتطم للأعلى والأسفل مع كل عتبة. ثم رمى الحقيبة على الأرض، ورمى محتوياتها على العشب، أسرعت غادة إلى غرفتها لتختبئ، متأكدة أن حمزة سيعود، وركضت سارة إلى الشرفة، واختبأت روان تحت الأريكة وعبود وراء باب غرفة المعيشة، فتحت غادة بابها قليلًا، قائلة:

«أم يوسف! أسرعي، واختبئي في الحمام أو في أي مكان! سوف يؤذيك!».

لم أكن خائفة منه بعد الآن، فجلست على سرير عبود، وانتظرت عودة حمزة، وبعد لحظات عدة اقتحم الشقة بعنف، ومشى إلى المكان الذي أجلس فيه ملتقطًا حاسوبي المحمول، فحملقت فيه، قائلة:

«هذا حاسوبي المحمول! إذا حدث له شيء، فلا تعرف ما سأفعله بك!».

«هذا ليس منزلك! عليك مغادرته!».

نزل أسفل الدرج غاضبًا، وهو لا يزال يحمل حاسوبي المحمول، راقبته من خلال النافذة، ثم وضع حاسوبي المحمول برفق بالقرب من الحقيبة، ابتسمت قليلًا، ثم أقفلت على نفسي باب الحمام، سمعته يعود للمنزل.

«أين هي؟ هذا ليس منزلها!».

لم يقل أحد شيئًا، وبعد بضع دقائق غادر، ثم أقفلت غادة الباب الأمامي، ونادت على الأطفال.

«فليسمع الجميع، لقد انتهت اللعبة أخرجوا أيها الجبناء!».

لم أكن لأسمح لحمزة بأن يفلت بما فعله، فطلبت من غادة رقم الهاتف لأتصل بالشرطة لم تكن تعرفه، لكنها اتصلت بأخيها لتسأله بدا دَهِشًا، وسألها: لماذا! فأخبرته بأنها تريد أن تخزن الرقم في هاتفها الجوال في حال حدوث طارئ، ثم اتصلت بالشرطة الفلسطينية، وأخبرتهم بأنني أقفلت على نفسي باب الحمام خوفًا من تصرفات حمزة الجنونية.

«إن حدث شيء لي فستكونون المسؤولين».

أخذوا معلوماتي، ووعدوا بأن يرسلوا شرطيين ليتحققا من الوضع، كان من الصعب عليهم أن يصلوا للمنزل، فلم تكن هناك أي لافتات طريق، لذلك كان على الشرطة أن تجد البيت اعتمادًا على وصف مكان منزل حمزة، وكيف يبدو، احتاجوا إلى ٤٥ دقيقة ليصلوا، فبقيت في الحمام، وأخبرت عبود بأن يراقب الشرطة من الشرفة، وعندما أخبرني بأنهم يقرعون البوابة خرجت إلى الشرفة. شاهدة بسعادة غامرة عندما دخلت سيارات الشرطة ممتلكات حمزة، كان أقاربه وجيرانه يقفون على شرفاتهم، ويتفرجون من خلال النوافذ، وكان عم غادة، الذي يعمل لمصلحة وكالة الاستخبارات الفلسطينية مع الشرطة.

ارتديت عباءتي وحجابي، ونزلت أسفل الدرج لأعرف نفسي إلى الضباط.

«مرحبًا. أنا التي اتصلت بكم».

بدوا مدهشوين، وقفنا خارجًا، وانتظرنا حمزة حتى يغيّر ثيابه، فلم يرغب في أن يذهب إلى مركز الشرطة بثياب غير لائقة، ثم لم يرد أن يذهب بسيارة شرطة، بل أراد أن يقود سيارته، وهي محاطة بسيارات الشرطة، وعم غادة يركب معه، أما أنا فركبت في المقعد الخلفي لإحدى سيارات الشرطة، وأنا هادئة بالكامل، كنت أعرف أن لا شيء سيحدث لحمزة في النهاية، لكني أردت أن أبعث له برسالة. لم أكن خائفة منه، ولا يمكنه أن يتحكم في بسهولة بعد الآن، التفت أحد ضباط الشرطة إليّ قائلًا:

«أأنت أم يوسف؟ اعتقدت أنك ستكونين أكبر عمرًا، فأنت الزوجة الأولى، ولديك كثير من الأطفال!».

كانت الساعة ٦:٠٠ مساءً تقريبًا، عندما وصلنا أخيرًا إلى مركز الشرطة. أخذني مدير الشرطة إلى مكتبه أولًا.

«أتتحدثين العربية؟».

«نعم».

«أوه، جيد! عندما أخبروني بأن سيدة أمريكية يهددها زوجها تساءلت: «كيف سأتواصل معها لأعرف ما حدث؟» فلغتي الإنجليزية ليست جيدة، أنا لم ألتقِ زوجك من قبل، ولكني

سمعت عن البلدة التي يقيم فيها، إنها بلدة صغيرة أصحيح أنه بنى جدارًا كبيرًا عليه أسلاك شائكة ليبقي أطفال الجيران في الخارج؟».

«نعم». بيته وهو حر لا دخل لي فيه.

رويت له كيف رمى حمزة أشيائي، وكسر كاميرتي، وكيف في كل مرة أحاول رؤية أطفالي يجد طريقة ليمنعني، فأنا لم أَرَهم منذ سنين عدة.

استمع مدير الشرطة، واسمه «يوسف» إليّ بانتباه، ثم استدعى حمزة إلى الغرفة.

«لقد أتت فدوى لترى أطفالها».

حمزة: «لقد هجرتهم، وهي لا تريدهم».

رفع المدير يوسف يده عاليًا، قائلًا:

«توقف نحن لا نتحدث عن الماضي، وإضافة إلى ذلك أنا لا أصدقك، ليس هناك أم لا ترغب في رؤية أطفالها».

«أنت لا تعرف ما حدث».

«ليس لديك الحق بأن تقفل الأبواب، وتبقيها في الخارج».

«لكنه منزلي، ويمكنني أن أفعل ما يحلو لي».

تنهد مدير الشرطة منزعجًا.

«لدي اقتراح لكما».

«يمكن لفدوى أن تستأجر شقة بالقريب من منزلك».

قال حمزة: «لا».

«لا؟ إذن دعها تبقى في منزلك، ولا تبقي الأبواب مقفلة».

«لكني لا أريدها أن تأخذ أطفالي، يمكنها أن تراهم داخل المنزل لا يمكنها أن تمشي معهم في الخارج أو تأخذهم لزيارة عماتهم».

يوسف: «وما المانع في أن تأخذ الأطفال للتسوّق أو زيارة الأقارب».

obeikandl.com

حمزة : «لا. لا أريد ذلك».

«إنهم أطفالها أيضًا، وليس أطفالك وحدك».

لا عجب أن حمزة رفض الانصياع لأي اقتراحات منطقية، وفي النهاية أرهق مدير الشرطة.

«عليّ أن أذهب لأنظر في قضية أخرى، آمل أن تجدا طريقة لتتفقا».

بعد أن غادر الغرفة نظرت إلى حمزة، وضحكت.

فقلت له: «فعلت كل هذا لتراني؟ لأنك لم تَرَني منذ ست سنين؟ هل اشتقت إلي؟».

قفز من كرسيه، وقال:

«أنت لا تعرفين ما تقولينه!».

انتقل إلى كرسي آخر.

رجع المدير إلى الغرفة، ونظر إلى حمزة، ثم إلي.

«اعتقدت أن أسمع أخبارًا طيبة، عندما أعود، ربما ستخبراني أنكما ستعودان إلى بعضكما».

نظرت إليه، وقلت:

«لا يمكن أن نعود إلى بعضنا، نحن مطلقان نهائيًّا».

استطاع مدير الشرطة بطريقة ما أن يقنع حمزة بأن أبقى مدة أربعة أيام أخرى في منزله، وألا آخذ الأطفال لأي مكان، ولا يحبسني في الداخل، وأضاف مدير الشرطة أنه على حمزة أن يدفع لي ثمن الكاميرا التي كسرها، فوافق فورًا أمام المدير، لكنه أخبرني لاحقًا بأنه لا ينوي أن يدفع لي شيئًا، كانت الساعة ١١:٠٠ ليلًا، عندما غادرنا مركز الشرطة، أخيرًا تمنى لنا المدير كل خير، ثم سألني كيف سأرجع إلى المنزل؟

«اعتقدت أن الشرطة سترجعني».

obeikandl.com

لـم أرغب في أن أسـتقل سـيارة أجرة وحدي، فأنـا لا أعرف الطريق إلى أين سـأذهب بالضـبط، وكان هنـاك نقطتا تفتيش إسـرائيليتان علـى الطريق، ومهما حاولت الشـرطة لم تستطع أن تقنع حمزة بأن أركب معه في سيارته للعودة الى البيت.

«إنها ليست زوجتي».

عرض الضـابط (يوسف) أن يرسل ضابطي شرطة في سيارة أجرة معي، ثم قال وعلى حمزة أن يدفع أجرة السـيارة، عندما أعود للمنزل. وقبل أنا أغادر تحدث معي مدير الشـرطة مرة أخيرة قائلًا:

«أنت أول امرأة في مركز الشرطة هذا أراها هادئة ورزينة، وتضحك».

«أنا سـعيدة لأنني اسـتطعت أن أجلبه إلى هنا لأكسر شـوكة الكبرياء التي يعيشها، لكن لسوء الحظ أنه لا يمكنك أن تضعه في السجن بضعة أيام».

يوسف: «لكنه كبير في العمر!».

أخذت سـيارة أجرة مع ضابطي الشرطة، ووجدت البوابة مفتوحة، عندما عدت للمنزل، دفع حمزة للسـائق، وغادر الضـابطان، عانقـت أطفالي الذين كانوا يرتعـدون خوفًا من أنني سأمضـي الليلة في السـجن، أمـر حمزة غادة بأن تذهب لتبقى عنـد والديها في أثناء وجودي في المنزل، فهو لم يرد شخصًـا آخر يدعمني أو يقف في صـفي ضده، وتوقف أيضًا عن جلب الطعام والماء لي ولأبنائي، فقد كانت هذه ضـمانته أنني لن أبقى هناك للأبد، وسأضطر إلى المغادرة في مرحلة ما عندما ينفد منا الطعام.

وفي اليوم المقبل حضر ابني يوسف إلى المنزل.

قال له حمزة متلعثمًا: «أترى ما فعلته أمك؟!».

بعد أن أمضيت بضعة أيام مع أطفالي بدأ حمزة يضغط علي ليخرجني من هناك.

«أخبروا أمكم بأن عليها المغادرة».

كان علـيّ المغادرة، فقـد احتجت إلى أن أرجـع إلى بيتي لأعمل، وأذهـب إلى الجامعة، فعانقت أطفالي والتقط صورًا لهم في زيّهم المدرسي. بدؤوا يبكون.

obeikandl.com

«ماما، متى سترجعين؟».

«عما قريب إن شاء الله».

لـم أرد أن أضـعف معنويـات أطفالي، لذلك عانقتهـم، وقبلتهم قبلة الـوداع، ووعدتهم بـأن أرجع لرؤيتهـم، كما فعلت مرات عدة من قبـل، وقبل أن أغادر كتب لـي أطفالي في دفتر ملاحظاتي، فقد كان من الصـعب عليهم أن يعبروا عن مشـاعرهم شـفهيًّا، خاصـة لأننا لم نَرَ بعضـنا منذ مدة طويلة، لكن بإمكانهم الرسـم وكتابة القصـائد، كتبت روان قصـيدة لي، ورسـمت قلبين مضمومين أسفل الصفحة، وحرف اسمها الأول على جانب وحرفي على جانب آخر من الصفحة، أما سارة فكتبت قصيدة من صفحتين، وكتب عبود أنني زهرة حمراء وسط زهور بيضـاء، ضـممت دفتر الملاحظات إلى قبلي، فهو تذكار بأن أطفالي لا يزالون يحبونني على الرغم من المسافة التي بيننا.

«اللهم، وأنزل رحمة من عندك تهدي بها القلوب، وترفع بها البلاء، وتنزل معها الشفاء، وتشفي بها الأدواء».

obeikandl.com